الفصل الثانى

الخصوصية اليهودية

كلمة «ثقافة» لها معنيان أو استخدامان رئيسيان:

١ – معنى متسع ويعنى أسلوب الحياة فى المجتمع بكل ما ينطوى عليه من موروث مادى ومعنوى حى.

٢ – معنى ضيق ويعنى الأنشطة الإبداعية المتميزة فى الآداب والفنون الأدائية والتشكيلية. ونحن نستخدم الكلمة بكلا المعنيين.

وتشير معظم الكتابات التى تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى «الثقافة اليهودية» و «التراث اليهودى» و «الموروث اليهودى». وهذه المصطلحات، شأنها شأن مصطلحات الاستقلال اليهودى الأخرى مثل «التاريخ اليهودى» و «القومية اليهودية» و «الخصوصية اليهودية» تفترض أن الجماعات اليهودية فى العالم لها حضارة مستقلة وثقافة مستقلة وتراث مستقل عن المجتمعات التى يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الإسهامات الحضارية المختلفة لليهود سواء فى بابل أو فلسطين فى العصور القديمة أم فى فرنسا فى العصور الوسطى فى الغرب أم فى بولندا والهند والصين فى القرن السادس عشر أم فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر أم فى الولايات المتحدة واليمن فى القرن العشرين،

وبرغم تنوعها الحتمى والمتوقع، تعبر عن نمط واحد (وربما جوهر يهودى) يجعل من الممكن أن نرى كل هذه الإسهامات باعتبارها تعبيرًا عن حضارة يهودية أو ثقافة يهودية واحدة، ويستند مفهوم الإثنية اليهودية (وهو مفهوم صهيونى أساسى) إلى افتراض وجود مثل هذه الثقافة المستقلة.

الثقافة بدلاً من العرق

ويلاحظ أنه بعد ظهور هتلر، وبعد قيامه بذبح الملايين من أعضاء الجماعات اليهودية والبولنديين والروس والغجر والمعوقين وغيرهم من البشر باسم التفوق العرقى الآرى أسقط الصهاينة المفهوم العرقى للهوية اليهودية، وأخذوا يؤكدون بدلاً من ذلك المكون الثقافى الإثنى كأساس للهوية. ولم يكن هتلر وحده هو الذى دفع الصهاينة للتخلى عن الاعتذاريات العرقية التى سادت فى الخطاب الحضارى الغربى منذ منتصف القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من محاولاتهم الأولى فى إثبات أن اليهود شعب واحد (آين فولك) بالمعنى العرقى، إلا أنهم وجدوا أن إثبات وحدة اليهود العرقية أمر فى غاية الصعوبة. إذ يوجد يهود بيض ويهود سود ويهود صُفر، ويهود من كل لون. ولذا لم يكن هناك مناص من التخلى عن الاعتذاريات العرقية الفجة على أن تحل محلها الاعتذاريات الإثنية الصقولة. وقد تعمق مفهوم الهوية الإثنية المستقلة حتى تغلغل تمامًا فى النسق الدينى اليهودى ذاته. فاليهودية المحافظة، على سبيل المثال، تدور حول مفهوم التاريخ اليهودى والثقافة اليهودية. وقد أسس المفكر الدينى الأمريكى اليهودى مردخاى كابلان فرقة يهودية تسمَّى

«اليهودية التجديدية» تستند إلى الإيمان بالحضارة اليهودية والثقافة اليهودية والتراث اليهودى، وإلى أن هذا التراث شىء مقدس يشغل نفس المكانة التى شغلها الخالق فى التفكير الدينى اليهودى التقليدى. وغنى عن القول أن المشروع الصهيونى بأسره يستند إلى رفض الأساس الدينى الغيبى للهوية اليهودية ويحل محلها فكرة الثقافة اليهودية المستقلة.

و «الخصوصية اليهودية» تعبير يفترض وجود سمات وخصائص (ثقافية أو عرقية) ثابتة، مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية، وهى التى تمنحهم خصوصيتهم وتفردهم وهى التى تحدد سلوكهم أينما كانوا وهى التى تشكل إطارًا حقيقيًا لوجدانهم ولرؤيتهم للكون. أما سماتهم وخصائصهم الأخرى (غير اليهودية) فهى سمات وخصائص سطحية لا ترتبط بصميم وجودهم أو وجدانهم. وفكرة الخصوصية اليهودية والتفرد اليهودى فكرة محورية فى كافة الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود، إذ إن أعضاء الفريقين يرون أن ثمة طبيعة بشرية أو هوية ثقافية يهودية مستقلة، ويذهب أعضاء الفريق الأول إلى أنها مصدر إبداع اليهود وإنتاجيتهم وحركيتهم بينما يرى أعضاء الفريق الثانى أنها مصدر عدمية اليهود وتخريبيتهم بل وإجرامهم. ورغم اختلاف النتائج التى يصل إليها أعضاء الفريقين إلا أن المقدمات الفلسفية والافتراضات الفكرية واحدة.

ومفهوم الخصوصية اليهودية مرتبط تمام الارتباط بمفهوم الثقافة اليهودية المستقلة. وسنركز على مفهوم الثقافة اليهودية المستقلة كمدخل لدراسة الخصوصية اليهودية.

استقلال الثقافة اليهودية

ونحن نذهب إلى أنه يمكن القول بأن ثمة تشكيلين حضاريين «يهوديين» يتمتعان بقدر محدود من الاستقلال عما حولهما من تشكيلات حضارية.

١ – الثقافة العبرية القديمة، التى تمتعت بقدر من الاستقلال داخل التشكيل الحضارى السامى فى الشرق الأوسط القديم. ومع هذا ظل هذا الاستقلال محدودًا للغاية بسبب بساطة الحضارة العبرانية ولضعف الدولة العبرانية ولتبعية الدولتين العبرانيتين (مملكة يهودا ومملكة يسرائيل) للإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأوسط القديم (المصرية – الآشورية – البابلية – الفارسية). والتبعية السياسية، خاصةً فى العصور القديمة، كانت تؤدى إلى تبعية ثقافية بل وأحيانًا دينية، ولذا استعارت الثقافة العبرانية الكثير من حضارات هذه الإمبراطوريات.

٢ – الثقافة الإسرائيلية (أو العبرية الحديثة). هذه الثقافة مستقلة ولا شك عن التشكيل الحضارى الغربى. ولكنها مع هذا لا تزال ثقافة جديدة لم تكتمل مفرداتها الحضارية بعد، كما أن الصراع الثقافى الحاد بين عشرات الجماعات اليهودية التى انتقلت إلى إسرائيل ومعها تقاليدها الحضارية (سفارد – أشكناز – يهود البلاد العربية – فلاشاه – بنى إسرائيل من الهند – يهود بخارى – يهود قراءون – سامريون.. إلخ) يجعل من العسير بلورة مثل هذه الثقافة.

ولكن العنصر الأساسى الذى يتهدد عملية بلورة خطاب حضارى إسرائيلى مستقل هو أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع استيطانى يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية ويعانى من تبعية اقتصادية وعسكرية مذلة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشى المتفوق، ولذا فثمة اتجاه حاد نحو الأمركة يكتسح فى طريقه كل الأشكال الإثنية الخاصة التى أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية. ومما يعمق من هذا الاتجاه أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع علمانى تمامًا، ملتزم بقيم المنفعة واللذة والإشباع المباشر والنسبية الأخلاقية والاستهلاكية وهذا يتعارض مع محاولة التراكم الحضارى. ومع ظهور النظام العالمى الجديد والاستهلاكية العالمية، فإنه من المتوقع أن تزداد الأمور سوءًا.

وبخلاف الحضارة العبرانية القديمة والثقافة الإسرائيلية الجديدة لا يمكن الحديث عن ثقافة أو حضارة يهودية مستقلة أو شبه مستقلة. فاليهود، مثلهم مثل كافة أعضاء الجماعات والأقليات الدينية والعرقية الأخرى، يتفاعلون مع ثقافة الأغلبية التى يعيشون فى كنفها ويستوعبون قيمها وثقافتها ولغتها. وإن كان هناك درجة من الاستقلال لكل جماعة يهودية عن الأغلبية، فإن هذا الاستقلال لا يختلف عن استقلال الأقليات الأخرى عن الأغلبية، كما أنه لا يعنى بالضرورة أن ثمة عنصرًا عالميًا مشتركًا بين كل جماعة يهودية وأخرى، فالعبرانيون، منذ ظهورهم فى التاريخ تبنوا حضارات الأمم الأخرى، ابتداءً من اللغة، مرورًا بالمفاهيم الدينية، وانتهاءً بالطراز المعمارى. وعلى سبيل المثال، لا يعرف طراز

يهودى معمارى، أو فن يهودى مستقل، فقد كان هيكل سليمان يتبع الطراز الآشورى الفرعونى (المصرى)، ولم يكن يختلف كثيرًا عن الهياكل الكنعانية. وكذلك تتبع المعابد اليهودية فى العالم العربى الطراز العربى. أما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر، فكانت المعابد اليهودية فيه تُبنى على الطراز النيوكلاسيكى السائد هناك آنذاك. والفنانون التشكيليون اليهود فى العصر الحديث، أمثال مارك شاجال، ينتمون إلى تراث فنى غربى ولا يمكن رؤيتهم فى إطار ثقافة يهودية مستقلة ولا يعرف أيضًا تراث أدبى يهودى مستقل، فالأدباء اليهود العرب فى الجاهلية والإسلام اتبعوا التقاليد السائدة فى عصورهم. وكذلك الأدباء اليهود فى الولايات المتحدة وإنجلترا، فإبداعهم مرتبط بالتراث الذى ينتمون إليه، وهذا أمر طبيعى.

لا توجد إذن ثقافة يهودية مستقلة، عالمية، تحدد وجدان اليهود وسلوكهم وإنما توجد ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضارى الذى يوجد اليهود داخله. ولذا يجدر بنا أن نتحدث عن ثقافة غربية يهودية أو ثقافة عربية يهودية، وبذا نخفض من مستوانا التعميمى حتى يتلاءم مع الظاهرة موضع الدراسة ولكننا لو فعلنا ذلك فإننا سنكتشف، على سبيل المثال، أن الثقافة العربية اليهودية هى، فى نهاية الأمر، جزء من الثقافة العربية، ولا توجد ملامح يهودية خاصة إلا فى بعض الموضوعات وبعض المضامين المختلفة إذ تظل البنية العامة بنية عربية. ولنضرب مثلاً بيعقوب صنوع وشهرته «أبو نظارة» أحد رواد

المسرح والصحافة الساخرة، وأحد رواد الحركة القومية في مصر. كتب عدة مسرحيات بالعامية المصرية إلى أن منعته الحكومة في عام ١٨٧٢، وجه هجومه ضد الإنجليز الذى كانوا قد احتلوا مصر. ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية، إذ تصنفه المراجع الصهيونية باعتباره مثقفًا يهوديًا وهو تصنيف لا يفسر أيًا من الجوانب الهامة من حياته، أدبية كانت أم سياسية، وهى حياة لا تفهم فى كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصرى وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطنى فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولتحاول على سبيل التجربة أن تفسر سيرة حياته الشخصية والفكرية فى إطار الجيتو اليهودى فى شرق أوربا أو قصة النجاح اليهودية فى الولايات المتحدة أو عنصرية يهود جنوب إفريقيا، لو فعلت ذلك لاكتشفت مدى عجز مثل هذا النموذج التفسيرى الذى يفترض وجود ثقافة يهودية واحدة عالمية.

وقل نفس الشيء عن الفنان المصرى داود حسنى، فهو ملحن وموسيقى مصرى يهودى ويقرن اسمه بموسيقيين من أمثال سيد درويش وكامل الخلعى حيث لعب دورًا بارزًا فى نهضة الموسيقى فى مصر وفى إثرائها فى العقود الأولى من القرن العشرين. وقد تميز داود حسنى بشكل خاص فى المسرح الغنائى المصرى حيث لحّن كثيرًا من المسرحيات الغنائية، وكان أول من قام بتلحين أول أوبرا مصرية هى «شمشون ودليلة»، كما لحّن أوبرا أخرى هى «ليلة كليوباترا» التى ألفها حسين فوزى. وقد

تتلمذ على يديه كثير من المطربين والمطربات الذين حققوا شهرة واسعة فيما بعد مثل أم كلثوم وأسمهان.

وتقوم الإذاعة الإسرائيلية بالإشارة إلى داود حسنى باعتباره موسيقارًا يهوديًا، وهو أمر يستحق التأمل دون شك، إذ إننا لو حاولنا البحث عن أى مكون يهودى فى موسيقاه لأعيتنا الحيلة. ولذا يدهش كثير من المصريين الذين يعرفون أغانيه وأدواره، كما يدهش كثير من المتخصصين الذين درسوا موسيقاه، حينما يعرفون أنه «يهودى». ومن ناحية أخرى، فإنه برغم تميزه داخل الحضارة العربية الحديثة، وبرغم ذيوع صيته، فإن كثيرًا من الموسوعات والدراسات التى تتناول ما يسمَّى «الثقافة اليهودية» لا تذكر اسمه (فالثقافة اليهودية عادةً ما تعنى عندهم الثقافة اليديشية أو ثقافة يهود العالم الغربى).

وإذا أردنا بلورة وجهة نظرنا بشكل أكثر حدة (وربما طرافة) وإذا أردنا أن نبين المقدرة التفسيرية لنموذجنا المقترح (فى مقابل النموذج الصهيونى القائل بالثقافة اليهودية ووحدتها) فلننظر إلى ظاهرة مثل الرقص الشرقى الذى يقال له البلدى (أى هز البطن). كان يوجد العديد من الراقصات المصريات اليهوديات فى (كاباريهات القاهرة) فى فترة الأربعينيات. ويوجد عدد لا بأس به منهن الآن فى الولايات المتحدة (خاصةً كاليفورنيا). ويوجد عدد من الراقصات «البلدى» فى الدولة الصهيونية، بل وتوجد مدرسة متخصصة لتدريس هذا الفن فى إسرائيل (وقد أثار المتدينون اليهود قضية بدلة الرقص الفاضحة، إبان إحدى

جلسات الكنيست). هل أصبح الرقص الشرقى بذلك «فنًا يهوديًا» وجزءًا من «التراث اليهودى» أم أنه ظل فنًا شرقيًا، ولا يمكن فهمه أو حتى فهم اشتغال بعض اليهوديات به، إلا فى إطار آليات وحركيات الحضارة العربية؟

وستتضح المقدرة التفسيرية لنموذجنا التفسيرى المقترح (عدم وجود ثقافة يهودية واحدة) حينما نطبقه على الجماعات اليهودية فى الحضارة الغربية، إذ سنلاحظ أنه لاتوجد ثقافة يهودية غربية واحدة، وإنما ثقافات يهودية بعدد الدول التى يتواجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، فثقافة يهود إسبانيا (السفارد) هى ثقافة إسبانية، تمامًا مثلما أن ثقافة يهود ألمانيا ثقافة ألمانية، وثقافة يهود إيطاليا ثقافة إيطالية وثقافة يهود أمريكا ثقافة أمريكية.. وهكذا. ويقول المؤلف الإنجليزى اليهودى آرثر كوستلر إن ما يُعرف بالتراث اليهودى، أو الثقافة اليهودية (بمعنى عام لا بمعنى دينى وحسب) أمر ليس من السهل تعريفه إذ إن كل ما يصدر عن أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم ليس يهوديًا بالمعنى المحدد وليس جزءًا من تراث يهودى قائم. فالإنجازات الفلسفية والعلمية والفنية لليهود تتوقف على معطيات ثقافة الشعوب الأخرى وحضاراتها.

المثقف اليهودى: من هو؟

والنموذج التفسيرى الصهيونى بافتراضه وجود ثقافة يهودية واحدة مستقلة يخلق مشكلات لا حصر لها بخصوص عملية تعريف المثقف اليهودى. فلا يوجد نمط واحد لتناول المثقفين أو الأدباء اليهود

للموضوعات اليهودية، فهناك من يتناول الموضوعات اليهودية من منظور يهودى ما مثل الروائى الصهيونى الأمريكى مائير لفين، ولكن هناك أيضًا من يتناولها من منظور معادٍ لليهود مثل الروائى الأمريكى (ناثانيال وست)، وثمة فريق ثالث يتجاهل الموضوع اليهودى تمامًا فى كل كتاباته أو فى معظمها مثل الناقد الأمريكى اليهودى ليونيل ترلنج. وهناك فريق رابع يتناول الموضوع اليهودى ولكنه يضعه فى سياق إنسانى عام ويرى أن غربة اليهودى الحادة إن هى إلا تعبير عن أزمة الإنسان (العلمانى) الحديث، كما يفعل المخرج السينمائى الأمريكى وودى ألين والروائى الروسى أيزاك بابل. وهذا التنوع يجعل من العسير إطلاق اصطلاح «مثقف يهودى» على كل هؤلاء. وفى عام ١٩٨٩، صدر كتاب بعنوان The Blackwell Companion to Jewish Culture (أى دليل بلاكويل للثقافة اليهودية). لكن هذا المعجم لا يضم سوى أسماء المثقفين اليهود داخل التشكيل الحضارى الغربى، واستبعد كافة المثقفين اليهود من الشرق مثل يعقوب صنوع وداود حسنى وغيرهما، ولعل محررى هذا المعجم قد فعلوا ذلك ليفرضوا نوعًا من الوحدة عليه. ولكن الوحدة فى هذه الحالة هى وحدة غربية وليست يهودية.

ولكن المشكلة الأخرى هى أن هذا المعجم يضم أسماء مثقفين يهود معادين بشكل أساسى لليهودية ولا يمكن فهم فكرهم إلا فى إطار تقاليد معاداة اليهود فى الحضارة الغربية، فهل يُصنَّف هؤلاء على أنهم مثقفون يهود يعبرون عن الثقافة اليهودية، بينما يُستبعد المثقفون اليهود الشرقيون؟

وهناك مشكلة ثالثة وهى مجموعة المثقفين اليهود الذين يؤكدون انتمائهم للحضارة المسيحية باعتبارها مصدرًا لوحيهم ولرؤيتهم للكون، مثل بوريس باسترناك، وإيليا هرنبرج (فى مرحلة من مراحل حياته). بل هناك فيلسوف يسمَّى ليف شستوف ظهر اسمه فى كتاب عن أهم ثلاثة فلاسفة يهود فى العصر الحدى ومعه مارتن بوبر وروزنزفايج. ولكن المعجم الذى نتحدث عنه لم يورد اسمه لسبب وجيه هو أن هذا الفيلسوف الذى وُلد لأم يهودية يعتبر فيلسوفًا مسيحيًا لأنه يتحدث عن واقعة صلب المسيح باعتبارها أهم حدث تاريخى. ولكن رغم استبعاد معجم بلاكويل لاسمه، فإننا نجد أن اسمه ورد فى الموسوعة اليهودية. وهناك أيضًا حالة نعوم تشومسكى، وهو من أشهر علماء اللغة فى العصر الحديث ويجيد العبرية وعاش بعض الوقت فى إسرائيل، ومع هذا تهمله كل الموسوعات اليهودية ربما بسبب عدائه لإسرائيل والصهيونية. فهل موقف المثقف اليهودى السياسى يسقط عن إثنيته اليهودية؟

وإنكارنا لوجود ثقافة يهودية مستقلة ومثقفين يهود خالصين لا يعنى إنكار وجود مكون يهودى أو عناصر يهودية مستقلة. كل ما نذهب إليه أن مثل هذه العناصر، إن وجدت، فليس لها مركزية تفسيرية، أى أنه لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودى ما، وطبيعة أدب أديب يهودى ما، فعلينا تبنى نماذج تفسيرية مشتقة من الحضارة التى ينتمى إليها هذا المفكر أو الأديب اليهودى بدلاً من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين (كما يفعل الصهاينة والمعادون لليهود). فالنماذج

المشتقة من تلك الحضارة ذات مقدرة تفسيرية تفوق بمراحل مقدرة النماذج المشتقة من الثقافة اليهودية ويمكن دراسة العناصر اليهودية باعتبارها عناصر مكملة، دون أن تكتسب مركزية تفسيرية. انطلاقا من هذا الإطار التفسيرى نطرح فى **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** نموذجا تفسيريا جديدا، مشتقا من الحضارة الغربية الحديثة. فنحن نذهب إلى القول بأن هذه الحضارة قد هيمن عليها بالتدريج (منذ عصر نهضتها) ما نسميه بالنموذج الحلولى الكمونى. والحلولية الكمونية تعنى أن الإله قد حل فى المادة (الطبيعة والإنسان) واصبح غير مفارق لها، وبذلك أصبح العالم (الإنسان والطبيعة) مكتفيًا بذاته، لا يحتاج إلى قوة خارجة عنه، ويمكن تفسيره بدراسة قوانين الحركة الكامنة (الحالة) فيه، هذه الحلولية الكمونية هى الإطار الفلسفى العام للحضارة الغربية بعقلانيتها المادية منذ فرانسيس بيكون وديكارت مرورًا بهيجل وانتهاءً بنيتشه (الذى ذكّر أوربا بأن الإله الحال فى المادة قد مات وأصبح غير قادر على أن يعطى للعالم معنى). والحلولية الكمونية هى الأرضية التى يدخل عليها اليهود إلى الحضارة الغربية. وسيادة هذه الرؤية الحلولية الكمونية، أمر لا دخل لليهود فيه، وإنما خاضع لحركيات الحضارة الغربية.

هذا هو النموذج التفسيرى الأكبر. عند هذه اللحظة يمكننا أن ننظر إلى العناصر اليهودية فتراها تشير إلى أن العقيدة اليهودية ذاتها كانت قد أصبحت عقيدة حلولية كمونية بعد هيمنة القبالاه عليها منذ القرن الرابع عشر، وأن الميراث الحلولى للمثقفين اليهود فى العصر الحديث (ابتداءً

باسبينوزا وانتهاءً بدريدا) قد ساهم ولا شك فى جعلهم أكثر استعدادًا لقبول الحضارة الغربية الحديثة، بحلوليتها وكمونيتها. ويمكن أن نشير إلى تصاعد معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية، بدرجات تفوق المعدلات السائدة فى المجتمع الغربى (كما هو الحال دائمًا مع الأقليات). ويمكن أن نشير كذلك إلى أن إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بالغربة وعدم الأمن (كما هو الحال أيضًا مع أعضاء الأقليات) جعلهم تربة صالحة وخصبة لتقبل الحضارة الغربية الحديثة.

الشك المعرفى والأخلاقى

ويمكن أخيرًا أن نذكر أن موقف كثير من المثقفين اليهود يتسم بأنه موقف نقدى جذرى من الحضارة الغربية، يتسم بالشك المعرفى والأخلاقى وسيطرة الفلسفات العدمية. كل هذه العناصر اليهودية ساهمت ولا شك فى أن تجعل المثقفين اليهود أكثر استعدادًا لتقبل الحضارة الغربية الحديثة وأكثر قدرة على التعبير عنها – أى أن المكون اليهودى فى ثقافة المثقف اليهودى الغربى قد يفسر حدة نبرته وجذريتها وعمق عدميتها وحلوليتها. كما قد يفسر تزايد عدد المثقفين اليهود من الثوريين والعدميين ودعاة العقلانية المادية، ولكنه لا يفسر بأية حال ظهور المنظومة الحضارية الغربية الحديثة العقلانية المادية، فهذا مرتبط – كما أسلفنا – بآليات المجتمع الغربى، الثقافية والاقتصادية.

بل إننا نذهب إلى أن بروز أعضاء الجماعات اليهودية فى الحضارة الغربية الحديثة، ناجم عن انتمائهم إلى هذه الحضارة واندماجهم فيها

واستيعابهم لها، لا انعزالهم عنها ويتزايد بروزهم بمقدار تخليهم عن عزلتهم واستقلالهم. وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودى بارز فى الحضارة الغربية الحديثة هو إسبينوزا الذى تخلى عن يهوديته. وقد أعلن هاينى أن التنصر هو تأشيرة الدخول للحضارة الغربية، فتنصر هو ذاته. وكما فعل أبو ماركس وأولاد هرتزل وأولاد موسى مندلسون ونصف يهود برلين فى القرن التاسع عشر.. إلخ). ولكن الأدق هو القول: إن التخلى عن العقيدة اليهودية (وليس بالضرورة التنصر) هو تأشيرة الدخول فليس مطلوبًا من أحد التنصر، باعتبار أن مرجعية الحضارة الغربية لم تعد المسيحية وإنما العقلانية المادية أو الحلولية الكمونية. وينبغى الإشارة إلى أن الكمون اليهودى قد ينصرف إلى بنية فكر المثقف اليهودى وإلى الموضوعات الكامنة، وليس إلى مضمونها الواضح. بل إنه يمكن أن يكون المضمون الواضح عالميًا وإنسانيًا بل ومعاديًا لليهود أو الصهيونية، وتظل البنية والمقولات الأساسية الكامنة يهودية بالمعنى المحدد الذى نطرحه، كما هو الحال مع إسبينوزا ودريدا وفرويد وكافكا. فإسبينوزا، وقف موقفًا رافضًا تمامًا لكل الأديان، بل واختص اليهودية بالهجوم الشرس، وهو فى هذا لا يختلف كثيرًا عن كثير من المفكرين الغربيين من عنصر النهضة، وهيمنة العقلانية المادية. ومع هذا لا يمكن فهم حدة هذا الرفض وهذا الهجوم إلا بالعودة للقبالاه اللوريانية والتراث المارانى.

واهتمام فرويد الحاد بالجنس يمكن رؤيته كتعبير طبيعى عن تصاعد معدلات العلمنة ومحاولة رد كل شىء إلى عنصر واحد كامن/حال (الجنس

فى حالة فرويد). ولكن القبالاه اللوريانية كانت قد قامت بإنجاز هذا معرفيًا وبشكل متبلور قبل ذلك بعدة قرون. وقد وصف أحد المراجع القبالاه بأنها جنَّست الإله، وألَّهت الجنس، أى جعلته نموذجًا تفسيريًا كليًا ونهائيًا، يُردُّ له كل شىء. وهذا ما فعله فرويد.

وتلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها، فتتحدث موسوعة الثقافة اليهودية عن هذا الزى «اليهودى الصميم» الذى يرتديه يهود المغرب والذى يسمَّى Keswa Kubra وهى «الكسوة الكبيرة»، وتُكتب الكلمة بحروف لاتينية دون ترجمة، فيتصور القارئ الذى لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية! ويوجد للزى اليهودى الصميم شىء يسمَّى Cum وهو الكم. ويأكل أعضاء الجماعات اليهودية فى بخارى طعامًا يهوديًا مميَّزًا يسمَّى Yachni أى الياخنى، أما فى اليمن فهم يأكلون طعامًا خاصًا للغاية لم نسمع عنه قط من قبل يسمَّى Khubz أى خبز.

أما فى إسرائيل، بلد العجائب، فيأكلون طعامًا موغلاً فى يهوديته اسمه Falafel أى الفلافل والتى اكتشفت أنها طعام إسرائيلى فريد حينما كنت أعيش فى مدينة نيويورك. ورؤساء يهود الفلاشاه، نوع خاص من الحاخامات، يسمونهم «قسيم» وهى صيغة الجمع العبرية لكلمة «قس» العربية (وربما الأمهرية) التى اقتبسها يهود الفلاشاه الذى دخلت على يهوديتهم عناصر مسيحية كثيرة! وحينما يحاول الإسرائيليون أن يرقصوا

فهم يرقصون رقصة يهودية صميمة تسمى «الهورا» (من أصل رومانى) أو رقصة يهودية أخرى. تسمى «الدبكة»! وحينما ترتدى مضيفات شركة العال زى الفلاحة الفلسطينية، فهذا زى إسرائيلى نابع من الثقافة اليهودية. وحينما أسس متحف فى قرى حيفا على هيئة قرية عربية أخبر كتيب المعرض الزائر أن هذه قرية من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يمكن تحاشى ذكر كلمة «فلسطين»، وحتى يختبئ الأصل الحقيقى للمنتج الحضارى. لكن هل يمكن تأسيس ثقافة من خلال مثل هذا التلفيق الرخيص والعنف اللفظى الذى يبعث على الرثاء؟ قد ينجح الصهاينة فى تأسيس بعض المستوطنات من خلال العنف والبطش العسكرى، ولكن التجذر الحضارى أمر آخر والقلاع الصليبية المهجورة التى لا يبكى أحد على أطلالها، شاهد على ذلك.

لا يوجد استقلال ثقافى يهودى، ومن ثم فلا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية، إذ إن مفهوم الخصوصية ليس له ما يسانده فى واقع اليهود الثقافى. فثقافات أعضاء الجماعات اليهودية بل ومعتقداتهم الدينية تتسم بقدر عال من عدم التجانس النابع من وجودهم فى مجتمعات شتى يتكيفون مع حضاراتها ويستوعبونها ويستمدون خصوصياتهم منها (لا خصوصية يهودية واحدة عالمية، كما يدَّعى الصهاينة والمعادون لليهود) ولذا فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، تمامًا مثل حديثنا عن ثقافات الجماعات اليهودية، لا عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مستمدة من معجم حضارى واحد.